فلسفة الفنون الجميلة

بقلم الاستاذ المفضال عادل افندي زعيتر خريج جامعة باريس

ما هو الفن الجميل ؟

للشعر والنحاتة والتصوير وصف مشترك وهو التقليد

اذ النحات يمثل بالتمثال انساناً أو نوعاً آخر من ذوات الحياة ، والمصور يصور على لوح التصوير أشخاصاً أو بيتاً او حديقة حسب أوضاع موجودة في عالم الحقيقة ، وكذلك الكاتب فانه بما يرويه من رواية أو فاجعة يحدثنا عن أوصاف وأفعال وأقوال كائن نظيرها في الكون

ثم ان من يدقق في حياة المتفنن يرَ أنها تنقسم الى دورين : فني الدور الأول وهو دور الفتوة والكهولة ينظر رب الفن الى الموجودات ذاتها فيبحث عنها مباشرة ثم يشحذ قريحته للتعبير عنها تعبيراً صادقاً ، وأما في الدور الثاني أي دور الشيخوخة فانه يظن انه عرفها كما يجب فلا يسعى لاكتشاف شيء جديد وهكذا فانه لا يعطف نظره الى المثال الحي بل يكتفي بما ناله سابقاً من تجربة فيؤلف مستعيناً به رواية أو يصور صورة او ينحت تمثالا

ويسمى الدور الاول دور المشاعر الصحيحة والدور الثاني دور التكلف والانحطاط

وليست حياة الرجل العظيم وحدها هي التي لها دوران بل ان مذاهب الفن جميعها تختل وتسقط باغفالها أمر التقليد الصادق واعراضها عن المثال الحي . ومتى تمزج المذهب الفني في اهماله ما في الطبيعة من أشياء وموجودات فان اشياعه لا ينظرون الى غير ما أتى به السلف من آثار فيكتفون باستنساخها ثم يجيء من بعدهم أشياع آخرون فيستنسخون آثار من جاء قبلهم وهكذا يبتعد المتفننون في كل جيل عن الاصل ابتعاداً مطرداً فيعتري الفن وهن فيذوي ويموت

يدلنا ما تقدم على أنه يجب النظر الى ما في الطبيعة من موجودات ليتم تقليدها وان الفن الجميل هو عبارة عن تقليدها تقليداً صادقاً كاملا

ولكن هل هذا صحيح وهل التقليد التام هو غرض الفن الجميل وغايته ؟ لو كان الأمر كذلك لصار أحسن الآثار وأجملها ما نشأ عن التقليد التام ، وهذا خلاف الواقع ، فالآلة الفطوغرافية تصور الشيء برمته من غير نقص ولا خطأ ، ولكن

شتان بين ما تجود به وما يجود به المصور المتفنن من حيث الذوق والتأثير ، وكذلك لو كان التقليد التام غاية الفن القصوى لأضحى سجل انحاكم الجزائية وما يدور فيها من القول والكلام أطيب الروايات وأحسن القصص ، ولدينا برهان آخر على ان التقليد التام ليس غاية الفن وهو ان التمثال له لون النحاس أو الرخام وليس في عينيه حدقة ومع ذلك فان وحدة اللون وقلة الملامح هما اللتان تزيدان في روائه وجماله . وفضلا عن ذلك فان من يمعن في الأمر يتبين له ان أجود الاشعار الحزينة واكثر روايات الانكليز والافرنسيين والاسبان والاغريق اتقاناً هي التي اعتورها شيء من التحريف والتغيير

اذاً وجب على المتفنن أن يقلد الاشياء ذاتها تقليداً غير حرفي ، ثم على المتفنن أن يلاحظ ما بين أجزاء الشيء من علائق متبادلة ونسب متقابلة ، فاذا أراد أن يصور مثالا حياً امرأة كان أم رجلا وليس عنده غير قلم رصاص وقرطاس صغير فلا يقدر على تصوير الاعضاء حسب عظمها وجسامتها اذ قرطاسه صغير ولا حسب لونها الحقيقي اذ ليس عنده ما يتصرف به من الالوان سوى الاسود والابيض وانما الذي يستطيعه هو أن ينسخ النسب في الجسامة أي أن ينسخ الرأس ملاحظاً ما بينه وبين بقية الجسم من الفرق مثلا ، ثم أن ينقل على قرطاسه النسب في الاوضاع أي أن يلاحظ ما بين انحناء الجسم واستدارته وزواياه والتوائه من تناسب

وهل على المتفنن أن يقتصر على استنساخ ما بين أجزاء الشيء من تناسب ؟ لا يكفي ذلك ، فاكثر مذاهب الفن اعتباراً هي التي تطلب في تحريف منقولاتها ، خذوا المذهب الايطالي مثلا تروا ان ناشر لوائه العظيم (ميكل آنج) لم يراع في تماثيله الاربعة التي نحتها ما بين الاجزاء من نسب ، وهذه التماثيل مصنوعة من رخام ومنصوبة على قبر (ميديسيس) في فلورنسا . حقاً انها — وهي التي تدل على رجال ونساء في رقود ويقظة — ليست كالأشخاص الحقيقيين من حيث تناسب أجزائها ، وانما قلب (ميكل آنج) ودماؤه هما اللذان أبدعاها ، وما أدرك (ميكل آنج) الدرجة التي تمكن بها من ذلك الابداع الا بروحه المحبة للانزواء والعزلة ونفسه المائلة الى التأمل الباحثة عن العدل الشريفة الكريمة الثائرة بين نفوس مترفة خبيثة شبت على الخيانة والاستبداد وانغمرت بالجور والظلم

وسمت في خنق الحرية وخراب الوطن . كان (ميكل أنج) يشعر بأن حياته في خطر و بأنه ربما يقضي عليها في وقت قصير ، ولما لم يستطع الصبر على الخنوع والذلة هاجر الى حظيرة الفن الجميل حيث كان ينطق قلبه الكبير ، وقد كتب على قاعدة تمثاله الراقد : « الهجوع عذب والاستحالة الى حجر أعذب في زمن استحوذ عليه البؤس والعار ، وما السعادة الا في عدم النظر والاحساس فلا توقظني ولا تكلم الا همساً ! » ان مثل هذه المشاعر هي التي أوحت اليه بتلك الاشكال وما قدر على التعبير عنها الا بتغيير النسب الاعتيادية .

و يدلنا المثال المذكور على ان المتفنن يتغيره ما بين الاشياء من نسب يبغي في ابراز وصف من أوصافها الاساسية و يعبر الفلاسفة عن ذلك الوصف الاساسي بكلمة « جوهر الاشياء » ولهذا يقولون بأن غاية الفن الجميل هي اظهار جوهر الشيء للعيان .

ان الوصف الجوهري للشيء هو الصفة التي تشتق عنها جميع صفات الشيء أو اكثرها ، فانظر الى الاسد مثلا ترأن وصفه الجوهري هو كونه ضارياً كاسراً ، وها أنا مبين لكم ان كل صفاته معنوية كانت أم جثمانية تشتق عن هذه الصفة اشتقاق الماء الجاري عن المنبع ، فللأسد اضراس كالمقراض وفك للسحق والافتراس وارجل ذات مخالب مخيفة وعدو سريع وعينان حادتان ترى الفريسة في الليلة الظلماء وغريزة سفاحة وميل الى اللحم الطري وقوة مهولة يدافع و يطارد بها وخمود عظيم وفتور كبير وتثاؤب مديد بعد فورة الصيد . فهذه الصفات كلها تشتق عن صفة الضراء الجوهرية .

واذا كانت غاية الفن ابراز صفة الشيء الجوهرية فلأن الطبيعة لم تف بذلك ، ولما أحس الانسان بالفراغ المذكور أوجد الفنون الجميلة لملأه .

والآن ولوا وجوهكم شطر ابواب الفن دون آثارهم أي انظروا الى كيفية شعورهم وابداعهم وانتاجهم لتروا انها مطابقة لما ذكرناه عن تعريف الاثر الفني ، اذ لا بد للمتفننين من موهبة فطرية لا يغني الدرس ولا الصبر عنها وهي القدرة على الابداع عند مصادفته الاشياء فابحثوا عن أعاظم المتفننين واكابر الكتاب في الوقت الحاضر ودققوا في رسوم أساتذة الفن السابقين وخططهم وخواطرهم ورسائلهم يثبت لكم انهم ذوو غريزة يجمعون بها ما يدور حولهم من افكار ومبادىء ثانوية فيرتقون

ما فيها من فتق ويهذبونها ويبدلون هيئتها ويغيرون شكلها ويقمصونها ثم يخرجونها الى عالم الوجود كأنها مبتكرة .

ها نحن قد وصلنا بما أتينا به من الشروح الى حيث نستطيع أن نعرف الأثر الفني : قلنا في البداية ان تقليد الظواهر الحسية هي غاية الفن الجميل ثم رأينا ان هدف الفن الجميل هو نسخ ما بين اجزاء الاشياء من نسب وعلائق ثم بينا ان من الضروري تغيير تلك النسب وابراز صنعة الاشياء الجوهرية للعيان . فلاعبارة من هذه تغني عن الاخرى ويمزجها مع بعضها يعرف الاثر الفني : اذا « فالاثر الفني هو كناية عن اظهار ما في الاشياء الحقيقية من صفة جوهرية وذلك بعد النظر الى ما فيها من اجزاء وتغيير ما بين هذه الاجزاء من تناسب وعلاقة تغييراً منتظماً لتبدو تلك الصفة الجوهرية »

(نابلس — فلسطين) عادل زعيتر

رحلة صاحب المجلة

٥

طرابلس

منظر مدينة طرابلس العام

ركبت سيارة من بيروت الى طرابلس والمسافة بينهما ٩٦ كيلو متراً قطعتها السيارة في ساعتين ونصف والطريق بينهما حسنة تسير في أولها بين حدائق غناء